عبد الحكيم قاسم

النبوءة

على وجهي قناع أسى قطري مقدور ، كأنني صاحب معزى ، أسير بين صفوف المعزين ، أشكر لهم السعي ، تتحرك شفتـــاي بغمغمات مبهمة ، ويرنق رأسي بتحيات عميقة ، والوجـــوه شاحبة بالضوء ، والعيون ذليلة ، والايدي مثل أفرع سنط جافة ، تشير ، ترد تحيتي ، وتمتد ترد فناجيل القهوة المعروضة .

والسقاة يمشون بين الصفوف ، ممثلين صامتين ، يعرضون القهوة وأكواب الماء ، يدوسون بحذر ، الاحذية الضخـــام لا تحدث صوتا ، ولا تخب الجلابيب السوابغ ، لا نأمة تقطع وشيش الكلوب الـــدائخ المحتضر .

ها هنا حشدنا ونصب المأتم ، واستـــــولى علينا خدر الصمت والضوء ، وصوت قارىء القرآن ، ندافع الحزن بجلال الاحتفال .

هكذا جئنا وأقمنا بظاهر هذه المدينة بيتا له ردهة منورة ، أترى مرسوم على وجوهنا ندوب الرحلة الاليمة ، الغبرة الريفية ، الجراح التي ما زالت ناشبة في الروح ؟

انا لا آمن لهذا الصمت ، كأنه سكك بين صفوف من شواهـــد القبور الطينية ، وجوه الآباء والاخوة ، الوجوه التي غيبها المـــوت ، عراها من كل شبه بشري ، دفنها في جب هذا الصمت ، وأنا لا أنـــي أعود ، أحدق فيه .

لكن جرس الباب دق ، مثل طلقات رصاص انطلقت في فـــلاة الحقول الغارقة في ظلام ليلة شتوية ، وتبادلنا النظرات ، قـــلوب تعرف الاصوات جميعها وتسميها بالاسماء .

كان عامل التلغراف ، أعطاني الدفتر ، وقعت فيه وتسلمت رقعة الورقة ، قرأت فيها :

« عمك ابراهيم مريض وحالته خطيرة ... احضر حالا » .

* * *

خرجت مسافرا ، لا أحمل حقيبة متاع ، انما رقعة التلغراف في جيب معطفي ، أصطنع لنفسي سكة وسط صخب هذه المدينة ، خالصا لسري ، للنداء المصنوع من ذبالات البكائيات القديمة ، من طنيـــن الصمت المخزون في أقبية الغرف المعتمة ، من الشجن المقدور فـــي أحاديث الرجال حول المصابيح الساهرة ، في عيونهم الفاسقة جواب أسئلة الحزن .

والزحام في ذلك الميدان رقصة مجنونة ، توشك ان تستلبني ، أن تملأني قرقعتها ذعرا فأطير فافزا في الجوانب ، لكنني أسكن روعي ، أقيم قامتي ، أعبىء وجهي الموشوم الاصداغ بالكبرياء ، أحدق فيمـــا حولي بعيون لا تقول ، فأنا لو حكيت فضحت ، ولو التفت أسرت ، ولو انحنيت سحقت ، ولو زلقت رجلي ذبحت على اسفلت ذلك الميدان الجحيـــم .

أهرع الى القطار ، يدفعني فزع الناس الى ان اجري ، أخاف ان يفوتني القطار ، أحشر نفسي وسط أكداس الاجساد والمتـــاع ، وأجهد ، أصابر غضبي ان يجرفني في تيار الصراخ والفبح السبائد ، أحمل نفسي على أن أصغي الى بذور الاقوال الصالحـــة والحكايات الطيبة التي تزرع هنا وهناك في جسد هذا الزحام العرقان ، تحـاول أن تنشب جذيراتها وتورق .

لكن الباعة والمتسولين يحرثون زحام الناس بالصراخ والسبـاب والخطب الزاعقـــة ، زعماء مشوهون يســـوطون الناس بالرعب ، يشدهونهم بالحكم المزيفة والسجع المجنون .

وهأنذا في قطار قريتنا الوئيد ، كأنما أنا في سفرة موصولة منذ سنين ، ونحن كلنا صحاب سفر ، لا نتبادل حديثا ـ ربما ـ لكنـــه وشيج بيننا التعارف ، والمودة صافية ، والضحكات تجلجل وتـوشك الكلمات أن تكون صراخا ، لكنها خالية من شوائب الشراسة .

وأنا صوت منصت لقرقعة العجلات في القضبان ، واصطفـــاف العربات ، ايقاع صخاب غالب ، تألفه ذاكرتي ، وتصحو على التداعيات التي يثيرها .

ألهـو بالاصـوات ، كأنما هي ألسنة فولاذيـة تنطـق بالحروف ، أصغي لها ، أحاول أن أحل رموزها ، تستغرقني ، تستولي عـــلى روحي ، تفعم قلبي بالكلمات المشؤومة ، يغرورق بالدمع .

أطالع الوجوه السمراء المخددة ، أرصد رهافة خلجاتها ، وأعرف ان صمتي له مطرح في قلوب صحاب سفري ، وانهم يسألون عنـي ، ينسبونني الى بلدي وعائلتي وأبي ، لماذا جاء ، يرهفون السمـــع والقلب لانباء الحزن ، عزاء أم عيادة مريض .

ـ هو اللي عالم بالعباد .

ورغم الحزن تولد في القلب قطرة الفرح اذا ما ابطأ القطار داخلا

على رصيف محطتنا ، أتصفح الوجوه الاليفة ، الناس الذين يحيون على رصيف المحطة هكذا ، يتطلعون الى القطار يذهب وينوب ، على وجوههم تساؤل غامض ، على شفا السفر ودونما سفر .

لا يدهشهم حضوري ، ويعلمون لماذا جئت ، فالانباء هنا تمشي من قلب الى قلب ـ بحتمية عارية عن السبب ، كما تمشي المياه في عروق الارض ، وينبت التساؤل عن الذين تغربوا من القرى الى المدن .

* * *

ـ من امتى .. ؟

ـ من زمان .

ـ ولا خبر .. ؟

ـ ما كتبناش .. الا لما غاب ... كتبنا ، ليروح ، من غير ما نشوفه .. !

نخبّ الخطى الى دار عمي ابراهيم ، وهم حولي .. الآباء والاخوة ... يحيطون بي ، تفحّ أنفاسهم على وقع خطاي ، تؤجج في داخلي الغضب القديم ، تدق طبولا مكتومة ، ما ينبغي ان يموت آبائي هكذا ، واحدا وراء واحد ، أنا هكذا أعرّى ، تبتر أعضائي ، والموت ملازم لبابنا لا يبرحه .

احتضنت رأسه بين كفي ، لا زال وجهه فاسيا غضوبا ، وشخيره لاهثا متتابعا ، غير متأوه ولا شكاء ، تؤنس روحي شراسة غضبته ، كأنما تهيب بي ، تستفز كل عنادي ورفضي ، أتحسس خشونة لحيته النابتة ، دهنية بشرته المتقرحة ، شفتيه الوارمتين المنفرجتين عن أسنانه المتسخة ، ثم أنحني عليه أقبل فمه ، ينهمر نهر دموعي ، لكنني أبقي صوتي ثابتا آمرا :

ـ مين شافه ؟

ـ دكتورة الوحدة الصحية .

وقال عنها عمي الكبير :

ـ بنت صغيرة ... ما فادتناش ... بعتنا لدكتور المركز .

ودخل ، أشقر جعد أزرق العينين ، أفسحت له ، فتح حقيبة عدته وأكبّ على المريض يفحصه ، يقيس حرارته وضغط الدم في عروقه ، ثم عرّاه ، لاول مرة أرى قروح جسده ، وجلت ، لكن الطبيب منصرف أشد الانصراف ، وسيم وسامة الصور المرسومة ، يفحص صدره وبطنه ، يمتحن مفاصله وتقوس ظهره ، يجسّ كل قطعة في جسده ، ويحار ، يسأل ويقولون له ان الوجيعة قديمة ، مستقرة في الاحشاء ، والطحال يتضخم ، ينزف ماء يثقل البطن ، يبذل كل آن ، وهو هكذا غائب منذ ثلاثة أيام ، والطبيب أسرّ لي :

ـ انا مش قادر استقر على رأي .. اما تسمم كبدي .. واما التهاب في الغشاء السحائي .

ويحللون البول في الوحدة الصحية ، لكن ذلك لا يفنيه :

ـ لا بد من تحليل الدم .. والنخاع الشوكي .

وأنا سوف آخذه الى طنطا وأجري له التحليلات ، الرجال من حولي ينظرون ، لا بد ان كلا منهم قد أتى بكل ما في داره من نقود ، وانهم سوف يتبعونني حيثما أحمله .

العمات جالسات على مصطبة وسط الدار ، عاصبات رؤوسهن بالطرح السوداء ، يدرن بينهن حديثا غامضا ، وهن مزمومات الافواه ، محدقات مثل بومات على فرع في صباح باكر ، يغمغمن بالكلمات لا تدري من المتكلمة .

ـ رايح به فين ... شايل رمته على كتفك ورايح بها فين ؟

ـ حلوا عصبات رؤوسكم ... ما هوش ميت .

ـ الهم ده ! احنا مولودين به .. وعايشين فيه .. وعارفينه .

ـ لكن انا رايح طنطا .

العربة الهائلة الهرمة تتأرجح على شارع البلد ، والسائق النحيل يتقافز على كرسيه ، راكزا بصره امامه ، محيطا المقود بساعديه ، ووجوه الناس على الجانبين مثل صور حائلة على حيطان قديمة ، يردون السلام ، وهو على جحور الرجال في المقعد الخلفي .

وحينما خلصت العربة من القرية انطلقت على السكة الزراعية المحفوفة الجانبين بأشجار الكافور ، ممتدة امامنا كأنها ثقب سحيق ضارب في الافق .

انهمرت دموعي ، صوت دولاب العربة يخفي نحيبي ، أبكي كالنساء ، أبكي قهرا أبيدا كالدهر .

* * *

وحملناه صاعدين به السلم العريض المتآكل الدرجات ، ودخلنا به معمل التحليل ، بيتا عطنا فسيح الغرف والردهات ، نلهث بحملنا ، نتأمل الارائك الخشبية والحواجز البالية والصور الباهتة العتيقة ، ونتذكر كم مرة الى هنا حملنا مرضانا .

ـ حطوه هنا .

رجل شاحب قميء يشير ، نمدده على الاريكة ، شخيره لا ينقطع ، ووجهه قاتم مغبر مغمض ، مفرج الشفتين ، متسخ الاسنان ، تكدره غضبة أليمة وقهر لا يوصف ، يجلس عمي الاصغر الى جانبه ، في يده منديل كبير ، يمسح له وجهه وفمه .

وفزعت حينما ظهر مساعد المعمل ، ضخما أسمر يشج وجهه اثر جرح شائه ، كنت سمعته يركن دراجته أسفل السلم ، يسألني وهو يدور مهتاجا مشغولا في أرجاء المكان ، خطوته تهز سقف المبنى القديم :

ـ أيوه يا أستاذ

دون ان يعير الجسد المسجى أي اهتمام ، أما أنا فعيني عليه :

ـ عاوزين تحليل دم ونخاع .

ـ خمسة جنيه .

ـ مش كتير .. ؟

وفكرت ان صاحب هذا المعمل من اصحاب أبي ، وانه يذبح في مولد السيد البدوي خروفين كبيرين ، وحلمت انني تلفته ، وانه نهر هذا الجلاد ، وأوصاه بنا ، وألا يفنضينا أجرا .

ـ خمسة جنيه يا أستاذ ... ما تضيعش وقتك ووقتي .

قام اليه عمي يمد يده بالجنيهات الخمسة .

ـ وعاوزين اتنين جنيه عشان الدكتور اللي حيطلع عينة النخاع .

أوشك ان انشب أصابعي في حلقه ، لكن عمي يجيبه بصوت منهدج كظيم :

ـ الدكتور بتاعنا حيطلع العينة .

واندفع المساعد الى غرفة أدواته ، وعمي نزل يتلفن للطبيب ، وأنا مشيت ناحية الاريكة .

ينحل اغماض عينيه عن مقلتين عكرتين ، وجفنين ملتهبين احمرارا ، ولحية نابتة تؤطر الوجه المليء بالفروح والندوب والاخاديد ، والشفتان الجافتان الوارمتان المتشققتان تتحركان حركة أليمة ، أقبض على كفيه مرتاعا .

والطبيب جاء ، أقبل عليه ، أنصت الى نبضه قليلا ممسكا بمعصمه ، زفر ، قام الى حوض المطهر ، يغسل يديه شاردا ، يسأل المساعد عن حقنة بذل النخاع ، وعن قفاز معقم ، والمساعد يجيب باعتداد وجهامة .

رفع الحقنة قبالة عينيه مليئة بسائل النخاع ، أصفر شاحب الصفرة ، رائقا دونما أدنى شائبة من صديد . سأل عن عينة الدم منصرفا عن الاجابة الى عين المريض ، يرفع جفنها ويتأمل بياضها المشوب بالاصفرار ، ثم يخرج دفتره ويصف دواء :

ـ ياخده الليله ... وبكره هشوفه ... ونتيجة التحليل هسأل عليها هنا بالتلفون .

ونزلنا نحمل جسد الغائب على أيدينا ، وعربة امام الباب تنتظرنا ، حالما رآنا السائق صاح :

ـ لا يا عم .. أنا ما أشيلش واحد ميت .

وصرخت به وأنا مقطوع النفس من حملي :

ـ انت مش جدع .. تمسكنا من الايد اللي بتوجعنا .

ورأس المريض مائل على كتفه ، وجهه مطلّ علينا بعينين لا تريان، والرجل زام ودمدم وساوم وزيدت له الاجرة ، وسارت بنا العربة في شوارع طنطا .

أخرجت رأسي من الشباك وبصقت مملوءا اشمئزازا وألما .

* * *

الملجأ القديم ، وذلك اللون البني القاتم الذي يسود ويسبغ على النفس كآبة يستروحها القلب ويركن اليها ، أتراني أرى نقوش الجدران ؟.. لعلني أتذكرها ، فان سرادق دخان موقد القهوة منصوب ، تكاد سجوفه تلامس رؤوس الجالسين ، لكنني أتتبع ذلك الاطار من الورود ، السائر أعلى الحائط ، يحضرني حزن طفولتي من تحول لونه وامحاء رسومه ، أحدق فيها ، أحاول ان أسترجع بهاء اللون القديم ، وقطع البياض التي سقطت واسودّ مكانها ، وتركت في قلبي فراغات فاجعة .

أسلم روحي للعتامة السائدة ، والوشيش ، ودائرة النور حول الكلوب لا تكاد تبتعد عنه الا قليلا ، الارائك الكبيرة ، والبساط الاحمر القاتم المتهرىء ، ومنضدة الرخام ، هذه الجسوم الشواهد ، ساكنة تتنفس التراب تحت قشرة خالدة من اللون الحائل ، وأنا متكىء على طراوة الوسائد ، مستريح في جلباب عمي يألف أنفاسه لحم جسمي كأنه جلباب قديم لي ، ألتهي بتصفح الوجوه الصغيرة في الصور القديمة المعلقة ، مستورة عن عيني بالدخان ، لكنني أعرفها ، وأميز وجه عمي الكبير بين صبيان مدرسته ، نحيلا رقيقا واسع العينين ، تكسف بهاءه سحب من خجل ريفي ، ها هو ذا الآن جالس على الاريكة، هائل حجم القدمين ، يرندي عديدا من الجلابيب والسراويل ومعطفا سابغا قديما ، ويربط ساقيه ويعمم رأسه بشتى أنواع الخرق ، منحن على الموقد الموضوع على منضدة الرخام ، يصنع القهوة بانصرافشديد وأناة نامة ، ويناولني فنجالي ، أستطعم مرارته وسكره ، وأتأملوجهه المجوف وفمه الغائر وملامحه السمراء القاتمة الغليظة ، وفجأة ينخرط في عياط :

ـ آه يا ابراهيم .

وزعقت فيه :

ـ أسكت .

مسح دموعه في منديله الكبير وسكت قائلا :

ـ طيب .

وتلفت ، صمت في عيني عيون الجالسين على الارائك ، أعمامي وأولاد عمي ، ينظرون اليّ بعيون غاسقة ، وأنا رجعت الى نفسي صامتا ، وساد سكون .

وأخرج عمي الكبير نظارته من جيب معطفه ، وضعها على أنفه ، وأمسك بقلمه ، وعكف على علب الدواء وزجاجاته يسجل الجرعات والمواعيد .

ـ خلاص بقى يا أسطى سليم .. آدي انت عرفت المواعيد .

وأتأمل (سليما) الحلاق ، وجهه الناعس المزدحم بملامحه المتوردة المكتنزة كأنه طفل وليد ، أعرفه فهو يسمع دون ان يجيب ، وان أجاب فهو خفيض الصوت مبهم العبارة ، وهكذا أصبح ، غائبا أو مأخوذا ، يدور على البيوت ، قصيرا وئيد الخطوة ، منتفخ الجيب بصنوف الادوية والمحاقن والضمادات ، يعود المرضى ، يحقن ويقيس الحرارة وينبه الى مواعيد الجرعات والاقراص ساعات الليل والنهار ، ينام حيثما انتهى ، بجوار آخر مريض ، ويصحو على الموعد التالي ، يقوم الى موعده دون بنت شفة ، لا يسأل الناس أجرا ، وان أعطي لم يحسب ، يأخذ ويمضي .

أفقت على صوت عمي الاصفر ، ينبهني أن نصحب سليما لموعد الحقنة ، صحت عيناي على وجهه ، كم سهرنا أنا وهو ، وفي هذه الغرفة الكبيرة القديمة ، وضوء هذا الكلوب ودخان هذا الموقد ، تقرب بيننا السن ، ومخافة ان تتخثر قلوبنا وتفعم عيوننا بالانكسار .

فمنا نصحب سليما ، خرجنا من الغرفة الى ردهة الدار ، الى الشرفة ، ثم تحدرنا على الدرجات الى الشارع ، نضرب في الظلام الى بيت عمي ابراهيم .

* * *

وصحت في عيني الاسطى سليم ومدة انتباه غريبة وهو يغرس الابرة بمهارة فائقة ، ثم يدفع السائل الدامي في الوريد ، والوجه الموسد ازداد قساوة واغبرارا ، عرّي من كل شبه بشري ، ازداد شبها بقطعة جافية من حجر غشيم .

وجميع العمات المتشحات بالسواد تصدر عنهن ولولة مبهمة ونواح مكتوم .

ـ منقاره اصفر ... وعينيه صلبوا في الحق .

اعتدلت جالسا على حافة السرير ، تأملت الوجه المسجى ، الجفنان انفرجا عن مقلتين عكرتين ثابتتين ، وعلى أرنبة أنفه بقعة صفراء في لون الكركم .. آه .. تلك غاية الالم .

قبلت جبينه ، الموت حالة من حالات النفس والجسد ، فنوط الى القشعريرة ، لامست الارض بقدمي نازلا ، مطلا على جمع العمات الجالسات على الحصير في الارض .

يرينني وهن منكسات أبصارهن في الحجور ، متعاليات كسحب سوداء ، ممتلئات بالحكمة الابيدة ، هؤلاء العارفات بالمواعيد ومقادير الافعال ، منذ متى كنزن الماء لغسل الجثمان والدقيق لخبيز المعزى ، ومتى يشقّ صراخهن الفضاء واصلا الى كل قلب ناعيا اليه الميت ، معلنا عن طقوس العدم المرعبة ؟

صمهن المتقبب الاسود القاعد بدأ يسري الى روحي ، يحزم بالفزع على قلبي ، كأنني ملحد تسلل الى قدس أقداس الموت ، مشيت خارجا والمصباح يطل عليّ بعين طفل مشدوه .

* * *

هكذا وها هنا ، وفي أصابيح كثيرة ندية وقف الرجال صامتين ، ترتجف القلوب في الصدور على مناحة النسوان في دار الميت، والايدي تتصافح دون نأمة صوت والشفاه تغمغم :

ـ آدي حال الدنيا .

الحزن أبيد ، ونبوءة الموت مخلوطة بأدام الخبز ، والرجال يغالبون الخوف بالوقار ، وباصطناع الجهامة الكئيبة التي تكبح الدم وتكتم نهنهة البكاء في الصدور .

ـ آدي حال الدنيا .

والتدبير قليل ، وكل يعرف دوره في الحكاية ، سوف تكنس هذه الباحة امام الدوار ، وترش بالماء ، وتجلب الارائك من الدور ، وترص ها هنا صفوفا ، وسوف يأخذ رجلان فأسيهما ويذهبان يحفران اللحد .

وافتقدت الحمارة ، ما أشد انكسار وجهها ، كأنما خلقت مطية لجلب تصاريح دفن الموتى ، الرجل يأخذها بعيدا ، يركبها ، يحرك ساقيه حركة قليلة ، يدفع بمطيته الى السكة ، والناس ينظرون صامتين .

لكن الوجوه حبيبة ، نابتة اللحى ، ذابلة العيون ، وسيمة بندوب الحزن ، مروعة بايقاع المناحة ، منورة بالمعرفة الاليمة ، ندية كالاصابيح الخارجة من سحمة الظلام .

(القاهرة) **عبد الحكيم قاسم**